الفيلم الفلسطيني بين الوجود واللاوجود

ابراهيم ابو ناب

في عام ١٩٦٥ وصلت رسالة الى ادارة الاعلام في منظمة التحرير الفلسطينية من احدى المؤسسات السينمائية العالمية تعرض فيها انتاج فيلم سينمائي ملحمي عن القضية الفلسطينية يكون ردا على الفيلم الصهيوني « اكسودس » . وقالت تلك المؤسسة في رسالتها ان العالم ينتظر الجواب على « اكسودس » ولا شك في ان هذا الجواب سيكون مفيدا جدا للشعب العربي من الناحية الاعلامية كما انه سيكون مربحا جدا من الناحية المالية . وكانت تلك المؤسسة مؤمنة في الفيلم المقترح الى حد انها عرضت المشاركة في انتاجه من خلال استوديوهاتها ومعداتها على ان تقوم احدى الدول العربية الغنية كالكويت مثلا بتمويل المشروع وان تحصل منظمة التحرير على نصيب من ارباحه لمصلحة العمل الفلسطيني . واقترحت تلك المؤسسة على منظمة التحرير ان تقوم بتزكية هذا المشروع لدى الكويت على ان يتم انتاج الفيلم تحت الاشراف الفكري للمنظمة . ولا مجال لشرح فوائد ذلك الفيلم لو انه تحقق اذ انها بادية للعيان لكل ذى عينين . وانا اشك كثيرا في ان تكون تلك المؤسسة قد حصلت على مجرد جواب على رسالتها ولعل حظ المتطوع السينمائي الباكستاني كان افضل قليلا من حظ المؤسسة السينمائية العالمية . فقد بعث ذلك الشاب برسالة الى رئيس المنظمة يعرض فيها أن يتطوع في صفوف المقاتلين الفلسطينيين وان يتبرع للمنظمة بكل ما كان يملك الا وهي آلة تصوير سينمائية مقاس ١٦ ملم . ولم يطلب ذلك المتطوع من المنظمة شيئا سوى ان تزوده برغيف خبز واحد كل نهار لا اكثر ! وقد تسلم ذلك الشاب رسالة شكر على « مشاعره وعواطفه » واعتذار عن قبول عرضه « في الوقت الحاضر » على ان ينظر في أمر طلبه حينما « تنشأ الحاجة » .

كان ذلك في عام ١٩٦٥ وكان يؤمل ان تكون الحال قد تغيرت كثيرا في عام ١٩٧٢ عما كانت عليه في ذلك العام . ولكن من يرى الافلام السينمائية التي انتجتها المقاومة الفلسطينية حتى الان ومن يرى المعدات والتجهيزات السينمائية المتوفرة لدى المقاومة فلا بد له وان يبدي اعجابا فائقا بالمبادرات الفردية التي عملت ما عملت وانتجت ما انتجت في ظل ظروف صعبة للغاية ، اصعبها هو استمرار ذلك الموقف اللامبالي من السينما لدى المسؤولين. والموقف الان في الساحة السينمائية الفلسطينية هو كما يلي : لا توجد صورة دقيقة عن الكوادر والمعدات السينمائية لدى المقاومة الفلسطينية الا انها في مجموعها ولدى جميع المنظمات الفدائية بما في ذلك منظمة التحرير لا تزيد عن ثلاثة او اربعة من العاملين وبعضهم غير متفرغ . وربما لا تزيد آلات التصوير عن اثنتين او ثلاث من مقاس ١٦ ملم ولا شيء اكثر من ذلك . وقد انتج قسم الثقافة الفنية في منظمة التحرير عددا قليلا جدا من الافلام التسجيلية في فترة ما بعد حرب حزيران وكانت تصور بصورة رئيسية بعض مخيمات اللاجئين وتدريب الاشبال والشباب على القتال . واما فتح فقد انتجت عددا قليلا ايضا من الافلام التسجيلية التي تصور الاحداث والمعارك مثل مجزرة عمان ومعارك العرقوب . وكان ابرزها فيلم « بالروح .. بالدم » الذي فاز بجائزة الافلام الوثائقية المتوسطة الطول في مهرجان دمشق الاول للسينمائيين الشباب . وتنتج الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين افلاما وثائقية قصيرة للتثقيف السياسي وهي كما يفهم تزداد رواجا بين الشباب في اوروبا . وتعد مصدرا من مصادر الدخل ومنفذا من منافذ التثقيف .

غير ان انتاج الافلام « الفلسطينية » لا يقتصر على الفلسطينيين او منظمات المقاومة . فقد قام افراد عديدون بانتاج افلام روائية تستقي مواضيعها من المقاومة والعمل الفدائي وكانت الحوافز الرئيسية لانتاج تلك الافلام هي الربح المادي باستغلال الحماسة الجماهيرية للعمل الفدائي . وقد حققت بعض تلك الافلام ارقاما خيالية نسبيا من الربح مثل فيلم « فدائيون حتى النصر » او « عملية الساعة السادسة » الذي عرضه المنتج في سوريا ولبنان والمغرب وبعض الاقطار العربية الاخرى . كما قام عدد غير قليل من السينمائيين الشباب في الاقطار العربية باخراج افلام روائية فلسطينية واخرى تسجيلية وذلك لحساب مؤسسات سينمائية مثل المؤسسة العامة للسينما في الجمهورية العربية السورية . وقد تميزت اكثر هذه الافلام بنوعية